مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (25) – العدد (01) (جوان، 2024) -ص 105- 122
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

أول قصة قصيرة جزائرية: (انتقام الشيخ) لمحمد بن رحال، ترجمة ومدخل لمقاربة سردية

The short story (The Sheikh's Revenge) by M'hamed Ben Rahal, translation and introduction to a narrative approach

عباس بن يحيى* ، (جامعة محمد بوضياف بالمسيلة)، abbas.benyahia@univ-msila.dz
https://orcid.org/0000-0002-8262-5308

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2024-01-26	2024-05-19

ملخّص

تطمح هذه المحاولة إلى إعادة نص هام ومميز إلى السطح، وتقريبه من الباحثين. ذلك أن معظم المشتغلين على الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، يعتبرون قصة (انتقام الشيخ) التي كتبها امحمد بن رحال سنة 1891 أول قصة قصيرة كتبت في الأدب الجزائري الحديث، وأول نص أدبي كتبه الجزائريون بالفرنسية. ومازال هذا النص الهام والرائد بعيدا عن متناول الباحثين، لأنه لم ينشر مرة ثانية بلغته الأصلية (الفرنسية)، ولم يترجم إلى لغة الكاتب الأم (العربية). فهذا البحث يستهدف محاولة سد هذا النقص بترجمة قصة ابن رحال إلى العربية أولا، مصدرة بتقديم تعريف موجز للكاتب، ودراسة أولية للقصة من أجل الوقوف عند مستوياته العميقة والسطحية للتحقق من مدى صحة رأي النقاد الذين صنفوها ضمن القصة القصيرة، وكذلك الذين صنفوها ضمن الحكاية.

الكلمات المفتاحية: القصة الجزائرية القصيرة؛ امحمد بن رحال؛ انتقام الشيخ؛ التغير الثقافي.

Abstract

This article aims to bring an important and distinctive text to the surface. Indeed, most of those who work on Algerian literature written in French consider the short story (The Sheikh's Vengeance) published by Ben RAHAL in 1891, as the first short story written in modern Algerian literature, and the first literary text written by Algerians in French. This pioneering text is still beyond the reach of scholars; because it has not been republished in its original language (French) nor translated into the author's native language (Arabic). This research attempts to fill this void by first translating this short story into Arabic, then preliminary study of the short story; in order to analyze its deep and superficial levels.

Keywords: Short Algerian Story; M'hamed Ben Rahal; Sheikh's Vengeance; Cultural change.

* المؤلف المراسل

مقدّمة

اعتبرت عدة أبحاث كُرست للأدب الجزائري الحديث قصة (انتقام الشيخ) لمحمد أو امحمد بن رحال (1858-1928) والمنشورة سنة 1891، نصا رائدا (Laroussi F. , 2016, p. 122) (Cheniki A. , 2019, p. 122) (Filali, 2016, p. 439) (Merdaci, 2010, p. 80) (Déjeux, 1982, p. 18)؛ كونها أول قصة قصيرة عرفها الأدب الجزائري الحديث، وأول نص أدبي مكتوب بالفرنسية نشره جزائري خارج الإطار الذي رسمته المؤسسة الكولونيالية التي حددت معالم أدب خاص بالأهالي، أو أنه أول كسر لاحتكار الكتاب الفرنسيين (المعمرين) للمجال الأدبي كما يقول (سعدالله، 2009، صفحة 177/8).

فهذا النص المميز والفريد يأخذ في مسار السرديات الجزائرية على اختلاف لغاتها أهمية كبيرة. بوصفه منجزا رائدا من حيث تحقيب نشأة القصة القصيرة في الفضاء العربي، بينما تم الاعتراف بداياتها عربيا مع قصص كتبت في مصر أوائل القرن العشرين مع محمود تيمور بالخصوص، إضافة إلى أن التمكين لهذا الشكل السردي في أوروبا إنما تم نهائيا في القرن التاسع عشر. وكل هذا يجعل من هذا النص علامة لافتة يستحق العناية، ويستوجب دمجه ضمن السلالة التي أخذت في التناسل، بالعربية وبالفرنسية في أدبنا الجزائري الحديث منذ منتصف القرن العشرين.

لكن السياق الثقافي للجزائر أواخر القرن التاسع عشر لم يتكشف عن أعمال أدبية بالفرنسية إلا هذا النص رغم وجود كتابات سياسية بالدرجة الأولى، بل كانت الكتابة الأدبية بالعربية تشكل التأثيث الأساسي للساحة الأدبية الجزائرية آنذاك وكالعادة يشكل الشعر النسبة الأكبر من فضائها إضافة إلى مجموعة من المقالات التي بدأت تظهر في بعض الصحف التي أنشأها الاحتلال. لكن ابن رحال كان وثيق الصلة بأدب الضفتين؛ إذ تمكن من الأدب الفرنسي فشكّل طبقة ثانية من ثقافته التي بنيت على طبقة رصينة من النصوص العربية التي تلقاها منذ صغره، وترجمته لنص شعري شعبي جزائري يشهد على متابعته للأدب بمختلف أشكاله.

وهذا المقال يستشكل هذا الوضع الغريب، وينطلق من مهمة أكثر منها سؤالا حول تغييب هذا النص وأسبابه، بل يعمل إلى تقديم النص باللغة العربية بالتزام منهج ترجمة يجتهد في ضمان أصالة الفكرة والمعنى الذي عبر عنه الكاتب، إضافة إلى تقديم مدخل لدراسة سيميوسردية من أجل تثمين جوهر مقاصد المؤلف، وتثبيت معاني ودلالات قد تقود الدراسات اللاحقة. وإنه لمن اللافت للنظر حقا ألا يكون مؤلف القصة شائعا أو معدودا ضمن سجل الأدباء الجزائريين؛ ذلك أن هذه القصة ظلت طيَّ النسيان وفي زاوية المجهول إلى غاية اكتشافها من طرف جون ديجو (Jean Déjeux)، ويبدو أنه كان ينوه بذلك ويذكّر به (Déjeux، 1982، صفحة 86). والحقيقة أن عدم شيوعها أمر مفهوم؛ لأن كاتبها امحمد بن رحال كان معروفا في أوساط المؤرخين الجزائريين والفرنسيين بنضاله السياسي ومواقفه وأعماله الفكرية والسياسية، ولم يكتب في الأدب إلا هذه القصة اليتيمة. ولذلك كان من الضروري الوقوف قليلا عند هذه الشخصية المرموقة قبل تقديمنا للعمل مترجما إلى اللغة العربية.

1- المؤلف

يحتل امحمد بن رحال مكانة هامة في تاريخ النضال السياسي الجزائري المبكر، فهو أحد أبرز وجوه النخبة الجزائرية التي تشكلت بعد إقرار التعليم الفرنسي (الرسمي) والسماح به جزئيا لبعض الجزائريين. ولقد لعبت هذه الفئة المثقفة دورا رائدا في الدفاع عن حقوق الجزائريين وفي التمهيد للحركة الوطنية ومرافقتها، والمشاركة فيها بحيوية ومن منظور حديث.

يذكر أبو القاسم سعد الله عائلة ابن رحال بمدينة ندرومة بوصفها عائلة علم وتصوف ووظائف رسمية (سعدالله، 2009، صفحة 232/3)، فأبوه حمزة بن رحال كان أديبا وصوفيا طرقيا، عيّنه الأمير عبد القادر قاضيا وإماما (الواعر، 2012، صفحة 286)، وقد أبقاه الفرنسيون في وظيفة القضاء ثم ولوه وظيفة آغا (سعدالله، 2009، صفحة 224/6). ووُلد ابنه امحمد في 16 ماي 1857، ونشأ في ندرومة في جو العلم والتصوف، فتمكّن من العربية وعلوم الإسلام؛ إذ تلقى تعليمه القاعدي في الزاوية فحفظ القرآن ودرس العربية وعلومها، لكنه تلقى أيضا تعليما فرنسيا، فانتقل إلى المدارس مزدوجة اللغة فبدأ بالمدرسة العربية-الفرنسية في 1865 (الواعر، 2012، الصفحات 285-288)، ثم أرسل إلى الكوليج في الجزائر العاصمة وواصل دراسته بالليسيه بعد إلغاء السابق، وتخرج منه في 1870 (سعدالله، 2009، صفحة 224/6)، فكان أول جزائري يحصل على شهادة البكالوريا سنة 1874 (Messaouda, 2008, p. 53). كما أنه أنجز إقامة في فرنسا في 1878، ثم عاد إلى الجزائر (AZAN, 1888, p. 522). وبما أنه لم يرث وظيفة أبيه فقد عين في منصب (قايد) لندرومة في 1884، ولم يعجبه ذلك فاستقال منه سنة 1886 (AZAN, 1888, p. 223) (سعدالله، 2009، صفحة 224/6). والواقع أن مكانة الوالد الدينية والرسمية سمحت له بالإبقاء على علاقته بعموم الشعب من خلال دوره المحترم في وظيفة إسلامية من جهة، وسمحت له من جهة أخرى بالاستفادة من التسهيلات التي تمنحها له وظيفته الرسمية لدى الإدارة التي تهتم لها فرنسا.

أكد مؤرخو ابن رحال على أنه مزدوج اللغة، وأنه كان من الغيورين على العربية والإسلام (Grandguillaume, 1971, p. 66) (سعدالله، 2009، صفحة 245/3). كما أنه من أبرز مقاومي التجنيد وتهميش القضاء الإسلامي، فقد كان من الزعماء الذين استمعت إليهم لجنة مجلس الشيوخ سنة 1892 فدافع عن القضاء الإسلامي والتعليم باللغة العربية (سعدالله، 2009، الصفحات 461/4-477). وكل هذا يشير إلى تأصل وطنيته وتشبثه بها، فعلى الرغم من أنه كان من النخبة الأولى وأغلبهم اندماجيون، إلا أنه حسب سعد الله كان في صف الانتماء الوطني (سعدالله، 2009، صفحة 144/6)، وكذلك نوه به البشير الإبراهيمي وبجهوده وقدراته (البشير، 1979، الصفحات 129/5-130). وبالفعل فقد بذل جهودا كبيرة في هذا النضال، ولهذا هاجمته الصحف الاستعمارية وبالخصوص منذ إعادة انتخابه عن عمالة وهران سنة 1923، فقد اعتبروه من أصدقاء الأمير خالد، ومدافعا شرسا عن الإسلام والمسلمين، ولذلك عملوا على خسارته في الانتخابات سنة 1925. وهو ما جعله يودع الحياة السياسية، فيكون مقدم الزاوية السليمانية (Djeghloul، Si M'Hamed Ben Rahal Un intellectuel musulman modernisateur، 2004، صفحة 91)، واعتزل ليعيش متصوفا في داره بندرومة قرب ضريح شيخ الطريقة الدرقاوية إلى وفاته يوم 06 أكتوبر 1928، وقد نشر تأبين جيد له كتبه العربي

فخار (L'écho d'Oran,1928, P.3)، وكانت جنازته حافلة حضرها جمع غفير من الجزائريين والفرنسيين الرسميين (بودن، 2017).

يصفه بول أزان في آخر لقاء له به قائلا: " كل تلك الظروف الصعبة أسهمت في دفعه شيئا فشيئا إلى نوع من الحياة الصوفية التي جعلت منه من نماذج أولياء الإسلام بكل ما تعنيه الكلمة. وفي المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى زيارته في ندرومة سنة 1927، وجدته في غرفته التي يستعملها للنسك والتي لم يعد يغادرها أبدا، على مقربة من ضريح شيخ الطريقة التي يتبعها؛ جالسا على كرسي مهيب، وكان يتكلم بصوت بعيد وخافت، بمظهر من صار شبه غريب عن أشياء عالمنا" (AZAN، 1888، صفحة 252).

وقد ترك عدة أعمال كلها باللغة الفرنسية؛ من أهمها:

1- **دراسة عن تطبيق التعليم العمومي في البلد العربي** Etude sur l'application de l'instruction publique en pays arabe. صدر في نشرة الجمعية الجغرافية لوهران، مجلد: 7، العدد: 33، سنة: 1887، ص ص: 123-117.

2- **السودان في القرن 16م**. Le Soudan au 16ème siècle وهو ترجمة لقطعة من كتاب نزهة الحادي للإفراني ونشره في نشرة الجمعية الجغرافية لوهران، المجلد: 7، العدد: 35، سنة 1887، ص ص 320-331.

3- ترجمة قطعة من: **تاريخ ندرومة** للآغا سي حمزة Histoire de Nédroma par l'Agha si Hamza إلى الفرنسية، وهو لأبيه حمزة بن رحال، ونشره كنال في مجلة الجمعية الجغرافية لوهران، مجلد: 8، العدد: 38، سنة: 1888، ص ص: 211-217.

4- **بين بني سناسن** A travers les Beni Snassen. 1889. ونشر في مجلة الجمعية الجغرافية لوهران، المجلد: 9، العدد: 40، سنة 1889، ص ص: 5-50.

5- **انتقام الشيخ**. قصة قصيرة، 1891، وهي التي نقدمها هنا.

6- **مستقبل الإسلام** L'Avenir de l'Islam. نشر في مجلة: قضايا دبلوماسية وكولونيالية ضمن ملف حول (مستقبل الإسلام) لإدموند فازي، ج8، عدد 113، في: 1 نوفمبر 1901، ص ص: 538-550. وقد نشرت المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر النص الأصلي سنة 2005، ثم نشرته مترجما إلى العربية سنة 2007 بتصدير عبد العزيز بوتفليقة.

7- **ترجمة قصيدة من الشعر الملحون عن المستشفيات**، للشيخ امحمد الرمعون من العربية إلى الفرنسية. ونشرت القصيدة من طرف الحاكم العام في الجزائر سنة 1903 بالعربية ومترجمة إلى الفرنسية. وأعيد نشرها باللغتين في كراسات مركز البحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC بوهران، دون ذكر المترجم، (تراث: الملحون: نصوص ووثائق، 2006، ص ص:61-66) وقد عثرنا على المترجم مذكورا بوضوح وهو امحمد بن رحال في: عرض عن الوضعية العامة للجزائر للحاكم العام شارل جونار، 1904، ص: 125. ويبدو أن المؤسسة الإعلامية الكولونيالية حاولت استغلال هذه القصيدة كشهادة عن إعجاب الجزائريين (الأهالي) بخدمات الاستعمار، فتم نشر القصيدة كاملة

بالفرنسية في (rédacteur, 1903, pp. 19-20)واستشهد بها في السياق نفسه جوزيف ديسبارميت (Désparmet, 1910, p. 428).

2- امحمد بن رحال ومشكلات الإسلام والحضارة

بالفعل شكّلت القضية الوطنية بمختلف أبعادها البؤرة الأساسية في كل أعمال وكتابات ابن رحال تقريبا، بل وفي نشاطه السياسي كذلك. وإن الدراسة المتأنية والعلمية لهذه الأعمال ستكشف دون شك عن جوانب هامة جدا لا تتصل فقط بالنضال السياسي، بل كذلك بقضايا فكرية حداثية اعتبرت ومازالت من قضايا الساعة نحو مشكلات الحضارة والتطور، وحوار الحضارات وصراعها، وتأصيل قراءات جديدة للإسلام وللتراث، والدفاع عن حق الاختلاف والتغاير. ولذلك اعتبره أبو القاسم سعد اللّه "من أوائل المثقفين الجزائريين الذين كتبوا عن الإسلام في مواجهة الغرب وتعاملوا مع رجال الفكر والإدارة الفرنسيين وخرجوا من الصراع المحلي- الإسلام الجزائري - إلى الصراع العالمي بين الحضارات" (سعداللّه، تاريخ الجزائر الثقافي، 2009، صفحة 425/6). ففي برنامج المحاضرات التي نظمتها الجمعية الرشيدية مثلا نجده مكلفا إلى جانب زملائه (المجاوي وابن التهامي وابن سماية وغيرهم) بمحاضرة بالفرنسية تحت عنوان: التوفيق بين الإسلام والتقدم (سعداللّه، الحركة الوطنية، 1992، صفحة 140/2). فهو يتكشّف عن وعي كبير سابق لعصره رغم أنه يتماهى تماما مع المنجز العام للنهضة الفكرية والأدبية والسياسية التي لاحت في الجزائر أواخر القرن 19 وأوائل القرن 20. فبعد سقوط المقاومات الشعبية المسلحة وتراجعها، كان في إمكان ابن رحال وزملائه أن يعيدوا تشكيل المقاومة السّلمية، والتصدي لخطط المؤسسة الكولونيالية انطلاقا من المعطيات الجديدة التي تؤثث المشهد، وأهمها استكمال فرنسا لمشروعها الاستعماري للجزائر وهيمنتها المطلقة، في مقابل تردي البنية التقليدية للجزائريين وانكسارها، وظهور تساؤلات وشكوك مست الهوية الجزائرية. ومن هنا جاء تركيزهم فكريا على مسألة الهوية في بعدها الإسلامي والعربي والإفريقي، وتركيزهم عمليا على قضية اللغة والتعليم ومحاربة الإدماج. لقد كانت لابن رحال تصورات عميقة للإسلام في خضم الصراع، فهو يضعه في منظور عام، يبدو أنه متأصل في نفسه منذ تكوينه في زاوية والده، وكذلك في احتكاكه عن قرب بمختلف النخب والتيارات والمشاريع الكولونيالية التي درسها وخَبَرها وعايشها عن قرب وناقشها أيضا. ولا يتناول ابن رحال هذه الهوية من منظور ضيق أو حسب منظور الإصلاحيين، إنما يرتقي في طرحه إلى مستويات فكرية، ليعالجها ضمن موقعها داخل الصراع والتهجمات التي استهدفتها، بل وفي إطار مشاريع تحديث هذه الهوية، ومنحها دينامية جديدة لتتمكن من استيعاب المتغيرات الحديثة ومقاومة التهجمات، والعودة إلى فاعلية بناء الحضارة من جديد (Rahal, 1901, pp. 546-549) .

فابن رحال يؤكد أن الغرب يجهل الإسلام ولا يبذل جهدا للتعرف عليه وفهمه خارج الاستيهامات والأحكام المسبقة (Rahal, 1901, p. 538). ماعدا بعض النخب الغربية المستنيرة التي تبقى قليلة؛ وصوتُها معزول ودُون صَدى، وهي تحاول تصحيح الصورة دون جدوى. إذ لا يمكن أن نهدم في يوم واحد من التصحيح عملا تشويهيا بُني في عدة قرون (Rahal، 1901، صفحة 547). ويلاحظ أن العالم الإسلامي قد بدأ يتغير، وبدأت شعوبه " تتلاقى نظراتها وتمتد أيدي بعضها إلى بعض، وتنبض قلوبها

من أجل الوحدة. فكل مكروه يصيب ركنا في الإسلام تتألم له بقية الأركان. لقد بدأ ينمو لدى الملوك والحكومات شعور التضامن، ويتم بينهم تنازلٌ لم نعتقد أبدا أنه سيتحقق، وتهدمت حواجز كانت دائما عقبات لا يمكن اجتيازها، وبدأت إصلاحات تتحقق، وأخذ التفاهم الودي يحل محل العداوات السابقة. وبالطبع مازال الكثير الجَمّ ليتم عمله، رغم أن استشعار الخطر وإدراك ضرورة معالجته هو في حد ذاته إنجاز كبير. إن أوروبا في عماها لا تستطيع أن تنظر إلى هذا التحول إلا نظرة شك ورفض؛ لأنها تعدها معرقلة لأطماعها، ولهذا فإنها ستسعى إلى خلط الأوراق، وزرع الخلافات وإلى منع أي نهوض حتمي. لكن هذه الدسائس الجهنمية لن يكون لها الأثر الذي تطمح إليه، بل ستنبعث نهضة الإسلام من تحت وقع مدافع المسيحية" (Rahal، 1901، صفحة 534) .

فهو يعتقد أن جوهر منظومة الإسلام يحمل بداخله قوته وقوة أتباعه، وأن شهادة التاريخ تكشف دائما أن دوره في بناء الحضارة الإنسانية لا يمكن إنكاره، ولذلك فإنه " لم يكن هناك شك أبدا لدى العقول المستنيرة والنزيهة أن الإسلام، من وجهة النظر الدينية والأخلاقية والتشريعية، وكذلك من وجهة النظر السياسية والاجتماعية، هو وبشكل واضح جدا، مبدأ حضاري" (Rahal، 1901، صفحة 541). ومثلما هو الحال عند الشعوب التي تمتلك ديانة، فإن الإسلام لا يموت، قد تسقط ممالك إسلامية، وقد تستعبد شعوبها، بل قد تتهدم الكعبة، وعلى رغم كل شيء، سيبقى الإنسان، الإنسان المسلم (Rahal، 1901، صفحة 544). وهو في هذه العبارة يتخلص من كل تصور شوفيني؛ لأنه يدرج سائر الديانات في القدرة على الاستمرار والنهوض من جديد. لكن هذا الدين إنما يعيش في العصور الحديثة في إشراطات جديدة، وهو كغيره، ووفْقَ المسلَّمة التي انتهى إليها مفكرو عصر النهضة في القرن 19 مطالب بمسايرة العصر، وتبنّي علوم الغرب ومناهجه، لكن بالتماهي مع النظرية الانتقائية التي كرّسها معاصروه. فيقول عند الحديث عن الأخذ بحضارة الغرب وعلومه الحديثة: "بالطبع، ينبغي ألا نقبل ونحن مغمضي العينين ما تقدمه لنا الحضارة، إذ يمكن ترك العديد من هداياها التي لا تحسد عليها. لكن هناك عددا كبيرا من الفوائد يمكن أخذه والاستفادة منه دون خطر علينا، ومنه كُلُّ ميدان العلوم الدقيقة، ونظام الأشغال العمومية والتعليم، وكل ما يتعلق بالتجارة والفلاحة والصناعة، فيمكننا اعتماده كله دون أن ندخل عليه تغييرا كبيرا. فالعقيدة لا ترفضه بل على العكس من ذلك تحث عليه وتدعو إليه" (Rahal، 1901، صفحة 543). ومن هنا، فإن على العالم الإسلامي أن يكون في موقع التلميذ للغرب، ليستوعب عصره ويتمكن من التطور والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية، ولكن دون السقوط في التبعية أو استنساخ القيم التي لا تتلاءم مع مرجعيتنا أو تعوق مهمتنا.

وبذلك يتوصل إلى معطى هام، قد يكون استنتجه من الفكرة نفسها التي تروج لها المؤسسة الكولونيالية أي (جلب الحضارة إلى المتخلفين)، لكنه يعيد صياغتها بشكل مختلف؛ إذ يتصور أن مصلحة المحتل لا تكمن في فرض التخلف والجهل كما فعلت فرنسا، إنما في مساعدة بلاد الإسلام على التحضر والتطور؛ لأن تطورها في نظره حتمية تاريخية لا يمكن إيقافها. فمن الأفضل للمحتل أن يكون شريكا في ذلك لأنه في مصلحته، بدل أن يترك هذه الشعوب المقهورة تتطور بعيدا عن عينيه ويده، فيأخذ تطورها وجهة أخرى، تكون نتيجتها ضده. ونقرأ له في هذا المعنى عبارة هامة جدا هي تحذير ذكي للغرب: " إن مصلحة العالم المتحضر كلها في الارتباط بالإسلام بتقديم أعمال نافعة له؛ لأنه إن لم يتحضر به ولأجله، فإنه سيتحضر على الرغم منه وضده" (Rahal، 1901، صفحة 547).

وهذا ما سيستمع إليه عقلاء أوروبا ونخبها المخلصة، لكن التيار يتجه إلى عكس ذلك، إذْ أنها تُفضِّل دعاةَ غزو الممالك وقهر الشعوب واستغلال المناطق، "دون أن تدرك أن ما سُلب بالقوة سيضيع بالقوة أيضا" (Rahal، 1901، صفحة 547) . وسوف تكون هذه العبارة شعارا بعد نحو أربعين سنة قبيل الثورة الجزائرية وخلالها، لتعبر عن الإصرار في مأثورة ثورية شهيرة "ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة".

3-قصة (انتقام الشيخ): التجنيس والبنية والدلالة

من الطبيعي ألا يتردد صدى قصته هذه في النقد الأدبي؛ إذ إنه لم يكن موجودا في تلك الفترة أصلا. ثم لأن ابن رحال لم يكن معروفا بالكتابة في الأدب، ولم يظهر عليه هذا الاهتمام، سواء في مدوناته أو في علاقاته الشخصية. فهي عمله الأدبي الوحيد. وهو ما يستوقف البحث العلمي ليطرح عدة تساؤلات حول هدف كتابتها، ومغزاها الحقيقي.

لكن القصة في حد ذاتها إنجاز مهم، لأنها كما سبق، أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية، فيفترض أنها حَدثٌ يُحتفَى به كثمرة من ثمار المشروع الاستعماري وآلية التعليم الفرنسي، وقدرة (الأهالي) على استيعاب ثقافة الغرب والتحكم في لغته[1]. لكنها أيضا أول قصة قصيرة عرفها الأدب الجزائري، بل إن هذا الفن السردي لم يكن قد اشتهر مغاربيا وعربيا[2]، وقد يكون من المشروع أيضا التذكير بأن القصة القصيرة كانت آنذاك في أمريكا وأوروبا تعيش مرحلة تأسيس وازدهار (غي دي موباسان، وتورغينييف، وإدغار ألان بو). فالواقع إذن أن هذا المنجز السردي رائد فعلا، وإسهام مبكر قد يكون التوجه إليه ثمرة قراءات ابن رحال ومتابعته، وهو يستحق الاعتناء به ودراسته بعمق.

3-1- نوع أدبي جديد في الجزائر

على صعيد التجنيس، فضّل مكتشف هذه القصة جون دي جو أن يصنفها ضمن القصة القصيرة (Nouvelle)، لكنه يبعدها عنها قليلا إلى نوع الحكاية (Conte). وربما لم يبذل هذا الباحث الموسوعي الكبير جهدا كافيا في دراستها، نظرا لانشغاله الأساسي في تحقيب مسار وظواهر الأدب الجزائري وبالخصوص في القرن العشرين. ثم لأنه أراد أن يبقى وفيا لتصنيفه الشهير لمراحل الأدب الجزائري التي وضع فيها كتابات الجزائريين بين 1900 و1950 تحت عنوان: مرحلة المثاقفة والمحاكاة رغم أنه يشير إلى أن الجزائريين بدأوا الكتابة بالفرنسية منذ 1880 (Déjeux J. , 1975, p. 59).

لكن باحثين آخرين فضلوا التوقف عندها، رغم أنها وقفة عَجلَى، تسجل في مداخل ومقدمات دراساتهم فقط. ومن هؤلاء عبد العالي مرداسي الذي يؤكد أنها قصة قصيرة فنية لا شك في ذلك (Merdaci، 2010، صفحة 80). وهي وجهة النظر نفسها التي تبناها عدد من الباحثين، غير أننا لم نعثر على دراسة واحدة لهذا النص للحصول على وجهة نظر تحليلية واضحة.

ولِفكّ هذا الإشكال، سنقوم بالتذكير أولا بقواعد القصة القصيرة الفنية كما حددها روادها وارتضاها النقد الأدبي. فهي سرد قصير، حدد البعض حجمه بعدد الكلمات، والبعض الأخر بمدة قراءتها (اسماعيل، 2013، صفحة 112). كما أنها تتضمن عددا محدودا من الشخصيات، والأماكن،

[1] لنلاحظ أن الصحافة الفرنسية لم تهتم بهذه القصة كما فعلت مع كتابات أخرى. فهل تكون فهمت منها رسالة تتناقض مع السياسة الاستعمارية؟

[2] يذكر في رواد القصة القصيرة العرب قبل محمود تيمور: سليم البستاني بقصته (رَميةٌ مِن غير رام) المنشورة في مجلة الجنان، 1870، فهو الذي سبق ابن رحال بقصة أدنى مستوى من قصة ابن رحال، ثم بعده لبيبة هاشم في 1899: (حسنات الحب)، جريدة الضياء، 1899.

وتدور أحداثها في مدة زمنية قصيرة. وينبغي كذلك أن يكون الحدث بسيطا غير متعدد، حتى لا تتحول إلى قصة متوسطة أو رواية. والأهم من ذلك تركيزها وكثافتها بحيث يمكن للقارىء أن يخرج منها بانطباع واحد لا تُشتّته أو تُشوشُه الأحداث الكثيرة والشخصيات المتعددة والبؤر المختلفة (الخطيب، 1982، الصفحات 107-121) (اسماعيل، 2013، الصفحات 111-113). إضافة إلى فروق أخرى تتعلق بطبيعة هذه المكونات نفسها في النوعين السرديين نفسهما (Aubrit, 2006, pp. 99-161) وهو موضوع دقيق.

وإذا نحن أسقطنا هذه المعالم على قصة ابن رحال فإننا سنجد أن حبكتها بنيت على غرار قصص قصيرة رائدة مثل قصة (الشيخ جمعة) لمحمود تيمور المنشورة سنة 1925. فقصة (انتقام الشيخ) اعتمدت شخصية رئيسية تقابلها شخصية هامة أخرى، يحركان الأحداث معا ويديران الحوار ويبنيان حبكة الصراع. أما شخصية (طونيو) و(بريك) فهما من الشخصيات المسطحة أو الثابتة، وعلى عكس قصة (فرانسوا والرشيد) التي كتبها الزاهري سنة 1925 والتي تدوم أحداثها 25 سنة، فإن هذه القصة تجري أحداثها في بضع ساعات فقط. كما أنها لا تتحرك في أماكن كثيرة بل تتركز بين قاعة الاستقبال في بيت الآغا بلقاسم ثم عند مدخل مقهى بوعصرية بوهران.

لا يوجد إذن مبرر لإبعادها عن نوع القصة القصيرة، ولا علاقة لها بنوع (الحكاية). بل يمكن القول بثقة إنها قصة فنية اعتمدت أسلوب عصرها في كتابة القصص القصيرة، وهو بالطبع أسلوب كلاسيكي مازال بعيدا عن التيارات الحديثة المعتمدة في السرد. وينبغي ألا ننسى كذلك أن القصة القصيرة قد نشأت في حضن الصحافة نظرا لتيسير نشرها. فهي التي أسهمت بشكل كبير في نشأة هذا النوع الأدبي وفي تطوره، ولم يشذ ابن رحال عن ذلك فنشرها في المجلة الجزائرية والتونسية الأدبية والفنية، وكذلك سيفعل الزاهري بعده بأكثر من عشرين سنة حين نشر أول محاولة قصصية له بالعربية عالجت موضوع الإدماج، وكان لها أثر كبير وغير مسبوق.

3-2-البنية السردية

بنيت الحبكة على غرار ما هو متوقع ومطلوب في القصة القصيرة على حدث واحد وبسيط. وتشكل الخطاب السردي من خلال حركة الحدث في نظام زمني خطي يبدأ من نقطة محددة (افتتاحية) ويتسلسل وفق ترتيب منطقي (كلاسيكي) إلى نهايته عند نقطة الحل. ويتلخص الحدث في احتيال الشيخ مسعود الشاعر على الآغا بلقاسم بودواية ليغير رأيه ويجبره على منحه النقود، بل الكثير منها. وقد نجحت الحيلة وانطلت على الآغا الذي وهبه كل ما في كيسه متوسلا-خوف الفضيحة-صمته وعدم إذاعة الحادثة بين الناس. لكن هذا مجرد تلخيص عام ووجيز لحدث القصة، قد لا يشهد وحده لترشيح العمل ليكون ضمن القصة القصيرة، فيبدو للبعض مماثلا لبعض الحكايات التقليدية.

لكن الكاتب قدم المنجز النصي السردي لا بالتركيز على هذا الحدث فحسب، بل إنه يشكّل بالنسبة إليه إطارا قصصيا عاما، تم تأثيثه بشخصيات وأمكنة وصور وصياغة سردية ابتعدت كلها عن الحكي التقليدي المبرمج بصيغة الأخبار والنوادر والطرائف بل وحتى السرد المَقَامي. فابن رحال ينزع من البداية إلى توجيه الخطاب السردي نحو حالات إنسانية وجزائرية بالخصوص، يسعى إلى استبطانها وتعمق آفاقها. ولهذا تحولت الشخصيات إلى مشاريع ذات وجود نفسي وجسماني وأخلاقي واجتماعي

مستقلة عن بعضها البعض، وكلٌّ منها ينتمي إلى نموذج بشري مختلف عن الآخر، ويجمعها في فضاء نصي واحد ليتحقق الصراع.

ومنه صار بإمكان القارىء معرفة الآغا بلقاسم خارجيا وداخليا، فهو يُشكّل داخل الحبكة وتطور الحدث صورته الخاصة عن الآغا؛ إذ يتحول إلى شخصية تناقض نظام الشخصية التي تم التعارف عليها وكَرّسها المنصب والوظيفة في متخيل القارىء. فهو آغا يَشكُّ في خياراته، ويتردد بين حياته البدوية المحلية البسيطة مثل بني قومه وبينهم، أو دفع ثمن كبير مقابل شراء وصنع مظهر حضري عصري يشك في أهميته وجدواه.

اعتمد ابن رحال إذن الوصف المسرود الذي التزم فيه الإيجاز، واستهدف تطور الشخصية ونموها التدريجي من خلال حركاتها وأفعالها. مما خلق لها حياة مستقلة داخل النص، فبدت متحكمة بمصيرها، تفكر وتقرر وتتحرك، ويزداد تعرف القارىء عليها كلما تطورت الأحداث، في فضاء حرص الكاتب أن يلتزم فيه ديكور البيئة الملائم (قاعة الاستقبال في البيت البدوي- الطريق- وهران- المقهى)، وهو ما يجعل للأمكنة حضورا أساسيا لتعبيرها عن بيئة جزائرية محلية خالصة، أسهمت بشكل كبير في بلورة فهم القارىء وتمكينه من بناء نص منسجم يوحي أكثر مما يقول. والحقيقة أن التفاصيل الجزائرية شكّلت في القصة خصوصية لم يعرفها الأدب الجزائري إلا في سنوات متأخرة، وقد أثرت النص وبثّت عددا من الرسائل التي هي علامات تساعد القارىء المتمعن على بناء فهم صحيح للقصة، فطونيو مثلا يحاول (ثني رجله على الطريقة العربية ولا ينجح) وهذه الجملة السردية تبين رغبة الكاتب في إبراز فشل الآخر في اعتناق عاداتنا وثقافتنا رغم ادعاءاته. كما تتعمق الخصوصية المحلية من خلال الإشارة إلى أولياء اللّه ومكانتهم، وذكر (سيدي عبد القادر الجيلالي) الولي المبجل، وهي كلها علامات أيضا على ثقافة صوفية متجذرة لم ينجح الاستعمار إلى ذلك الوقت في اجتثاثها. بل إن مصطلحات ثقافية خاصة بالمجتمع الجزائري أسهمت في حيوية وواقعية الصورة السردية كثيرا مثل (الدورو- البرنوس- الحايك..)، وهو ما اضطر ابن رحال إلى دعم النص المركزي بنصوص موازية (Paratextes) في صورة هوامش تفسيرية من أجل مساعدة القارىء على التلقي، وحثه على تجاوزها ومواصلة بناء متخيله الخاص.

وبالفعل، فإن السارد يرسم صورة (الدُّوار) ببساطته ومكوناته الطبيعية كعودة قطعان الماشية، والخيول، وأصوات الحيوانات. ويضع مقابلها البرج الذي أفنى الآغا عمره وماله في بنائه دون أن ينتهي. إنها حياة الريف مقابل حياة المدينة، لكنها أيضا الحياة المحلية الأصيلة مقابل الحياة التي يبنيها الغرب في بيئة لم تتعود عليها. ولهذا تنطلق الأحداث من هذه النقطة حيث الآغا بلقاسم يوبخ طونيو رئيس البنائين على التأخر في إتمام بناء البرج واستمرار مطالبه المالية، فيبرز السارد معاناة الآغا مع البناء الجديد والانتقال من حياة البادية إلى حياة الحضر، من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة العصرية، مؤمنا أن مكانته ستزداد ارتفاعا مع بناء البرج. وفي هذا السياق يدخل الشاعر مسعود لتبدأ الأحداث، لكن لا علاقة لها بما سبق إلا بما يبرر شكوى الآغا ورفضه منح الشاعر مكافأته المالية، فتتطور إلى صراع. لكن السارد لا يركز على احتمالية نهاية الحدث (الحل) الذي تم واقعيا في الأخير.

ولذلك سيخرج القاريء بانطباع بؤرة احتمالية نهاية الصراع الداخلي لدى الآغا، وهو الذي بقي دون حل.

3-3-الدلالة

في مستوى البنية العميقة للنص، ينتقل القاريء إلى معضلة تفسيره وفهمه؛ ذلك أنها مشكلة تبدأ من تأليف القصة نفسها الذي بقيت أسبابه غامضة. وبعبارة أخرى فإن كتابة ابن رحال لقصة فنية دون مبرر واضح، لا ينسجم مع شخصيته كرجل مفكر وسياسي. لكن غياب الوثائق التي تبرر ذلك وتفسره، يجعل القاريء يعوِّل على المدونة وحدها لمحاولة بناء قراءة مُتقبلَة، انطلاقا من العلامات التي شكّلت بنية النص السطحية. فتتسع بذلك لتشمل محاولة تأويلية لبناء فهم مختلف لها.

إن القاريء والنص كليهما كما يلاحظ فيليب هامون، يعيدان بناء الشخصية خلال زمن القراءة، فهي شكلٌ فارغ تقوم المحمولات المختلفة بملئها، ذلك أنها دائما "وليدة مساهمة الأثر السياقي ونشاط استذكاري وبناء يقوم به القاريء" (هامون، 2012، الصفحات 22-36-40). أي أن القاريء، ومنه الناقد، يلتقط معنى العلامة في سياق محدد ويقوم بانتخاب دلالة من ضمن دلالات متعددة. فإذا أخذنا الشخصية الرئيسية في قصة (انتقام الشيخ) أي الآغا بلقاسم كمثال، فإنها تبدأ كعلامة فارغة (Morphème vide) لرجل يتكيء على بساطه ويتحادث مع كبير البنائين، والقاريء يشرع في ملء هذه العلامة بدءا من تحديد السارد لوظيفته كآغا. وهي علامة هامة تشتغل دلالتها الثقافية والاجتماعية في مخيال القاريء الذي يعرف من خلال ثقافته القرائية والاجتماعية معناها. فيأخذ في تأطير هذه الشخصية مُنذئذٍ، وكلما تقدم في القراءة واصلَ ملء الفراغ وتقوية معرفته بالآغا حتى ينتهي النص. وبالفعل فإن اسم (بلقاسم) لوحده يحيل على خصوصية جزائرية في تكييف اسم تراثي عربي إسلامي، لكنه لا يكفي لملء الشخصية، لكن وظيفة (آغا) تحيل على تسمية جزائرية ورتبة تركية زائلة، استغلها المستعمر ليكلف الجزائريً بقومه مقابل شيء وهمي، فهو اسم ورتبة لا وجود لها، وصلاحياتها غائبة تماما. وحول الآغا توجد شخصيات مرجعية (كما يسميها هامون) تلعب دورا ثانويا، كالخادم (بريك) الذي يؤدي دوره بشكل جيد، وتسهم عباراته وحركاته في ضبط معالم الشخصية حتى صارت مقنعة جدا للقاريء. ومثله (طونيو) رئيس البنائين (الرومي) المكلف بإنجاز بناء برج الآغا، فهو أيضا شخصية مرجعية، إلا أن دوره أكبر من دور الخادم المحايد في النص. لأن قلق الآغا وضيقه إنما يعود إلى تأخر (طونيو) في البناء، ويعتبر ذلك نقطة تمهيد أساسية لانطلاق الأحداث؛ إذ بسبب ذلك قرر الآغا ألا يمنح الشاعر (مسعود) مالًا على شعره. ولذلك فإن هذه الشخصية ستتواجد مع الآغا ضمن الشخصيات الاستذكارية 1. لكن السبب الحقيقي لهذه الوظيفة المزدوجة لشخصيته إنما هو لكونها أيضا علامة على حقيقة وسلوك فئة المعمرين، الذي ليس فرنسيا أصيلا، ولكنه داهية يعبث بأهل البلد، ويمتص إمكانياتهم ويبيعهم الوهم.

وبدخول الشاعر (مسعود) تبدأ الأحداث، وتتحرك نحو العقدة ثم الحل. وسيكون موقعه- على مستوى الحدث- في مقابل شخصية الآغا (بلقاسم)، بوصفه مشكلته في القصة، لكنه على مستوى

[1] " قد تنتمي شخصية واحدة إلى الأنواع الثلاثة في وقت واحد بشكل تتابعي. فكل واحدة تمتاز بأبعادها المتعددة الوظيفة داخل السياق"، (فيليب هامون، 2012، ص: 32).

الدلالة إنما يقع في مقابل (طونيو)، باعتباره ممثلا لفئة (الأهالي) ولثقافة أخرى ونمط مختلف من الحياة والتفكير. لكنه كشاعر إنما يمثل النخبة الضائعة، والماضي البائس، وانحطاط الفرد الجزائري لظروف الاستعمار، فيسعى إلى خداع أولئك المخدوعين من المستعمر.

وهكذا، فإن الآغا سيقضي كل عمره في مطاردة السراب، واستهلاك جهده وموارده لبناء شخصية جديدة (عصرية كالروميين)، تحت إشراف الآخر (طونيو) الذي يعلِّق له الطعم، ويستدرجه، ويوهمه أن ذلك ممكن، بل قريب، لكنه لا ينتهي ولا يصل. وهذا الشاعر الماكر يعكس حرص الآغا على البنية التقليدية وتمسكه بها وخوفه من فضيحة التخلي عنها. ولذا يقدم كل شيء لهذا ولذاكَ، وهو باقٍ في مكانه لا يتحرك. ويتحقق من كل هذا لدى القارىء انطباع واحد يتشكل أساسا من نماذج الشخصيات التي تم تطويرها، وأكثر من ذلك يتسع أفقه القرائي إلى أجواء القصة وإيحاءاتها. **فالآغا موزع بين طونيو الأجنبي الذي يحتاجه لبناء مظهره العصري، وبين الشيخ الشاعر مسعود الذي يشكل قَناةً تصِله بقومه وحضارته وتراثه وقيمه ومكانته أيضا** .

وعلى الرغم من أنه لا يمكن نقل قصة (انتقام الشيخ) لتوضع إلى جنب مرحلة لاحقة ضمت قصص محمد ديب وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، فإنه لا يمكن أيضا أن تدرج ضمن صنافة المقال القصصي أو الصورة القصصية. فهي جديرة أن تكون ضمن سلالة قصص الأربعينات والخمسينات حيث كانت القصة القصيرة قد استقامت بشكل كبير.

ترجمة قصة (انتقام الشيخ La vengeance du Cheikh)

كانت أمسية صيف جميلة،

وهو مستلق على سجادة من الرباط، ورأسه مائل على راحة يده اليمنى التي يتكيء مرفقها على ستورمية [1] فارهة من المخمل المطرز بالذهب، كان الآغا العجوز بلقاسم بودواية يبدو مستغرقا في تأمل البرج الذي ظل يشيده على ضفاف وادي مينا[2].

كان البناء ينتصب أمامه بفخامة وزهو في برنوس[3] براق من مستخلص الجير ومن الفسيفساء. وكانت الشمس التي غربت، قد تركت عليه هالة فوسفورية أخذ وميضها في التلاشي كلما تقدم الظلام.

على بعد مائة متر من موقعه، كان الدُوَّار[4] يضيء نيرانه، فيما بدأت تصل، من كل الجهات قطعان من الغنم، والجِمال، تثغو وترغي، مُطلِقة تأوهاتها الشاكية بنبر طويل، أجشّ وحزين، ينبعث

---

[1] وسادة مستديرة من القماش، أو الجلد أو المخمل. (**المؤلف**).

[2] ينبع وادي مينا من جبل الأخضر قرب فرندة. ويصب في وادي الشلف. وتقع سدود على ضفافه. وإليه تنسب سهول مينا في ولاية غيليزان (المترجم).

[3] البرنوس أو البرنس، قال ابن منظور: " البُرْنُس: كل ثوب رأْسُه منه مُلْتَزِقٌ به، دُرَّاعَةً كان أَو مِمْطَراً أَو جُبَّة. وفي حديث عمر، رضي اللَّه عنه: سقط البُرْنُسُ عن رأْسي، هو من ذلك. الجوهري: البُرْنُسُ قَلَنْسُوَة طويلة، وكان النُّسَّاكُ يلبسونها في صدر الإسلام، وقد تَبَرْنَسَ الرجل إِذا لبسه، قال: وهو من البِرْس، بكسر الباء، القطن، والنون زائدة، وقيل: إِنه غير عربي". لسان العرب: (برنس). وهو لباس تقليدي رجالي مغاربي. وهو عبارة عن ملتحف طويل دون أكمام، أبيض غالبا ويكون بنيا أيضا. ويصنع من الصوف ووبر الإبل. ويتضمن قلسنوة للرأس. ينتشر استعماله في منطقة الشمال الإفريقي. وينظر: صوفي فاطمة الزهراء: اللباس التقليدي للعروس في الجزائر-من خلال نماذج مختارة، ص ص: 25-26.

[4] " جمع: دواوير... القَرْيَةُ في البادِيَةِ تَضُمُّ عَدَداً مَحْدوداً مِنَ الدّور"، معجم: الغني: (دُوَّار). وهو "مجموعة من المساكن الريفية تضم عددا من الأسر تجمع بينها روابط عائلية أو قبلية". (المترجم).

كلما ثارت. وتُشكِّل أصوات الكلاب جوقة كُورَالِية. ومن ناحية إلى أخرى في المراح[1]، تتجاوب الخيول بصهيل مدوي.

في الواقع، كان الآغا بلقاسم غنيا، فقد بارك اللّه ثروته وعائلته، لكنه كان في حاجة إلى برج يخبيء فيه أمواله، وليكون شاهدا على ثرائه ووجاهته. وستكون سعادته ومجده كاملين لا ينقصهما شيء عند الفراغ من تشييد هذا البرج. وعلى سبيل المثال، فإن تكلفته كانت تحرق جيوبه، بل ورهيبة أيضا، وعلى الرغم من ذلك، فإن البناء يبدو كأنه لا يريد أن ينتهي أبدا.

وحول الآغا يتجمع نُدمانه المعتادون، وكان من بينهم رجل إيطالي ذو بطن مترهلة، ورأس داهية، يتحامل على نفسه ليثني تحته رجليه القصيرتين، على الطريقة العربية، دون أن ينجح، وكان هو كبير البنائين، قال وقد حزر ما يدور في عقل السيد:

- لقد انتهى، يا سيدي! بقي فقط أن توضع بعض التحسينات، وتبييض الداخل، لمسة طلاء هنا ولمسة هنا، ثم باسطا! [2]

- باسطا! باسطا! إنك تردد لي ذلك منذ مدة طويلة يا طونيو، ولم ينته ذلك أبدا.

- وحق ربي[3] ! ... حاول هذا الأخير أن يقسم.

- وفي النهاية، كم سيستغرق ذلك من الوقت أيضا ؟

- شهر، يا سيدي، ولا يوم واحد أكثر من ذلك.

- وبالتقريب، كم سيكلف ذلك...؟

- آه! مبلغ بسيط.... خمس مائة دورو[4] .

- يا ابن اليهودي! خمس مائة دورو، هل تسخر مني؟

- وأيضا، قال الشقي في ثقة، وأنا لن أربح ذلك فقط! وكان ينقر أظفره على أسنانه.

من المؤكد أن كبير البنائين كان وغدا كبيرا، ولم يكن الآغا، أو على الأقل لم يعد، ضحية حيله. وبينما كان يضغط بعصبية لحيته بيده اليمنى ويستعد ليقولها له بعبارات واضحة الرزانة، ظهر فجأة زنجي عجوز، يضع يده اليمنى على صدره، ويحني الرأس، في مظهر خادم متواضع، وتقدم يطلب الإذن بالكلام:

- ماذا هنالك يا بريك؟ سأله السيد.

- سيدي! لقد وصل الشيخ مسعود من مازونة[5]، وهو يطلب الضيافة.

- أهلا وسهلا به، أحضره إلى هنا يا ولدي.

أثناء تنفيذ الخادم هذا الأمر، اكفهر وجه القائد بعد أن كان يبدي ترحيبا وتهليلا، وراح يغمغم متذمرا.

---

[1] فضاء دائري يفصل بين خيام الدوار، ويتم تخصيصه لقطعان الماشية. (المؤلف). المراح: وهو فناء يتقدم غرف المنزل، فيكون بعد المدخل مباشرة، (المترجم).

[2] باسطا *Basta* كلمة من أصل إيطالي وإسباني أيضا، وتعني: كفى، أو: يكفي. (المترجم).

[3] كتبها المؤلف هكذا بالعربية، وهي قسم متداول لدى الجزائريين وسكان المغرب العربي عموما (المترجم).

[4] الدورو *Douro*: هو إحدى عملات استعملت في الجزائر، وأصله من إسبانيا *Duro* وسمي (الدور والجزائري) تمييزا له عن الدورو الإسباني، وبقيت التسمية بعد الاستقلال وأطلقت على عملة تعادل خمسة سنتيمات، (المترجم).

[5] مدينة جزائرية تاريخية، تقع غرب الدزائر، وتتبع حاليا إلى ولاية غيليزان. (المترجم).

- الشيخ مسعود؛ لقد جاء دون شك ليكرر لي بعض القصائد، وليسلبني بعض النقود. ألم يكن في استطاعة هذا أن يبقى عند أمه؟ وعلى كل حال فإن لدي متسعا من الوقت للاستماع إلى هرائه، والأدهى من ذلك أن أدفع له ثمنا مقابلها، بينما أواجه الصعوبات الجمة في تلبية مطالب هذا الرومي[1] الكافر. خمسمائة دورو!

- في هذا المكان، ويلقي نظرة غاضبة نحو الإيطالي المتحجر، وهؤلاء الشيوخ، هؤلاء القوالون، وهؤلاء الشعراء كلهم متسولون!... أقسم بسيدي عبد القادر الجيلالي، وهو شيخي، لن أعطيك ولو فلسين يا شيخ مسعود!

رغم ذلك، فإنه ما أن تقدم التروبادور[2] حتى زال غضب الآغا كله وكأنه تحت تأثير السحر. وهل يمكنه، وهو سليل عائلة من الأجواد الكرماء، أن يقابل بوجه عابس أحد رجال اللّه وشاعر أيضا؟

ثم أخذ يخاطبه بصدق:

- لتحمل لنا خطواتك البركة، يا شيخ مسعود، يا سيد الكلام، ومغدق المدح، وفارس الشعر!

- لك التحية، يا سليل الكرماء، وابن الخيمة العظيمة، ونسل جنس الأجواد النبيل.

- إن مجيئك يفعم قلبي بالسرور، واللّه على ما أقول شهيد.

- أدعو اللّه أن يجزيك عنا، ويبقي منزلك كبيرا وعامرا إلى يوم القيامة!

في ذلك الوقت، كان القائد العجوز، يتحدث إلى ضيفه بلهجة ودودة للغاية، وبسبب خجله من مزاجه السيئ العابر، فقد كان يضاعف من اهتمامه ولطفه. أما الآخر، فقد كان من ناحيته يؤكد امتنانه عن طريق طوفان من المجاملات والأمداح، كلٌّ منها أكثر بلاغة وإغراء من الأخرى.

- كنت أعتقد أن برجك قد انتهى، قال أخيرا، وإنما جئت لحضور افتتاحه.

وفجأة، عاد عقل الآغا إلى الأفكار البغيضة.

- افتتاحه! قالها بتأوه، منذ مدة طويلة وهذا النصراني الملعون ابن الخطيئة يعدني به. وقد بدأت أيأس من تحقيق افتتاحه. آه! يا شيخ! يا له من عمل مجنون أقدمت عليه! هل كان يليق بنا نحن البدو الرحَّل التفكير في السكن بين الجدران؟ لقد ذابت وتلاشت كل ثروتي في الآجر، والجير، والخشب، والحديد، ولم أبلغ نهايته لحد الآن.

مع استعادته لمزاجه السيء، كان يشعر بالنشوة أيضا، لتحذيره غير المباشر من طلب المال الذي أحس أنه هو التالي، أو ليقلص على الأقل من مبلغه قدر الإمكان. وراح يرسم صورة مؤسفة لوضعيته، فعاد الحديث عن مواد البناء وبالتفصيل، مادةً، مادةً، مع أسعارها الملتهبة في الواقع، وكذلك بطء البنائين، وصعوبة النقل. وطونيو! هذا الطونيو القذر، كان قد تلقى بالفعل سيلا من اللعنات لا تمحى في ذلك المساء، وينبغي أن نعترف أن ذلك لم يحرك منه ساكنا.

---

[1] الرومي *Roumi*: يقصد بذلك الأوروبي عموما من المستعمرين الفرنسيين والمعمرين النازحين مع المستعمر الفرنسي، (المترجم).

[2] التروبادور *Troubadour*: هو شاعر أو موسيقي عرف في القرون الوسطى جنوب شرق فرنسا وسرقسطة في مملكة أراغون وضواحيها. ولهذا الشعر علاقة بالشعر الأندلسي العربي، بل يذهب باحثون إلى أن أصل الكلمة أندلسي. (المترجم).

غير أن الشيخ مسعود لم يستغرق وقتا طويلا ليدرك ويكتشف مناورة مضيفه. إذ أنه بروح ماكرة وداهية، مثل كل الطفيليين أمثاله، كان قد التف مباشرة في برنوس شديد البياض، لكنه رثٌّ بل فضيع الرثاثة، كان أعده خصيصا لإغراء الآغا وتحفيزه على الكرم، وتمتم في نفسه:

- آه! آه! يا سيدي بودواية، ليست هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذه الأغنية. تريد أن تبخل علي يا سيدي، لكن ذلك ليس سهلا معي. أنبهك وأحذرك من ذلك. سوف تعطيني الدوروات يا صديقي، والكثير منه، بل أكثر مما تتصور!

لكنه وهو يتظاهر بالإصغاء إلى مضيفه، مظهرا التعاطف مع وضعيته، كان يهز رأسه ببطء في مظهر المستمع، مطلقا تأوهات مشفقة في كل مرة يذكر فيها هذا الأخير رقما غريبا أو بعض مكائد السيد طونيو.

- إن سيدنا محمدا (صلى اللّه عليه وسلم) قال: " قل الحق ولو كان مرا"، لخص مسعود بذكاء. حسنا! أنت كريم جدا يا مولاي. إن يدك لا تمسك المال، وأنت تبالغ في الثقة بالناس. صدقني، ستندم إذا لم تكبح سريعا سخاءك، وتضع حدا لمستغليك.

- رجل شهم فعلا! أسرَّ الآغا في نفسه مسرورا.

وبعد تناول طعام العشاء، تمنى له، ومن أعماق قلبه ليلة سعيدة.

في الصباح الباكر من يوم غد، وبعد أن توضأ الآغا وصلى، اتجه إلى بساطه. وكان يمسك في يده اليمنى مسبحته فيما تغمغم شفتاه صلوات قصيرة. وبعد لحظات قليلة، دخل بريك حاملا صينية نحاسية عتيقة، عليها قهوة الصباح وبعض الفطائر.

- اذهب وأحضر الشيخ مسعود، أمره السيد.

وأثناء خروج العبد، أضاءت ابتسامة وجه العجوز وتمتم: لقد لقَّنته أمس درسا بطريقة جيدة، والواقع أنني ببعض الدوروات سأغمره بسعادة لم يكن يتوقعها، بعض الدوروات؟ يقولها بلهجة حزينة، إنه لشيئ يسير من الآغا إلى الشيخ مسعود. لكن لا بأس، فالمرة الواحدة ليست عادة، وفي المرة المقبلة سأعوضه.

- سيدي، قاطعه بريك لدى عودته، إنه لشيء غريب، لكن الشيخ مسعود غير موجود في غرفة الضيوف، وإنني أخشى ألا يكون قد نام فيها، إذْ وجدت بجانب برنوسه هذا رسالة يبدو أنه تركها لك.

- ماذا يعني ذلك؟ تساءل الآغا وهو يأخذ الورقة من خادمه، وقرأ ما يلي:

الحمد للّه وحده،

إن سيدنا محمدا صلى اللّه عليه وسلم قد قال: " إن حفظ مال الكريم هو عمل جدير بالتقدير". ومن حقك يا آغا بلقاسم، ليس فقط حفظ مالك، بل أن تُهَبَّ إلى مساعدتك لمواجهة التكاليف الباهضة لأعمال بنائك التي تستهلكك. ولهذه الغاية أهديك هذا البرنوس القديم، وهو الوحيد الذي أملك. ولك تحياتي.

عبد اللّه مسعود.

أثَّرت الدهشة والذهول والغضب وهي تتوالى على مظهر القائد الكبير الذي فهم بوضوح رسالة الهجاء الساخرة. وفجأة أطلق ضحكة عالية.

- أقسم بطلاق زوجاتي، إني لأستحق ذلك، أردت أن أتواضع لأكون مفيدا، وها أنا مرتبك. هذا جيد جدا في حقي، إنني أستحقه!

- يا بريك! يا ولدي، أضاف بقوة، أحضر لي جبيرتي[1] بسرعة، وسيارتي. أسرع، أسرع! عسى ألا يكون الوقت قد فات، لنعالج هذا الخطأ الجسيم.

ولهذا السبب، استطعنا، وقبل أن يُلوِّن الفجر القمم بالبياض، أن نرى في ذلك اليوم سيارة الآغا بلقاسم وهي تطير على دروب وهران المغبرة. وعيناه تتفحصان الأفق.

- بالطبع، قد اتجه هذا الملعون ابن اليهودية إلى وهران، من أجل نشر خبر حادثتي المؤسفة. والمهم أن أصل إليه قبل أن يكون قد بدأ في الكلام. وأضاف، إن هذا الكافر قادر على أن يجعل مني مسخرة عند كل القبائل؟

غير أن الشيخ مسعود، وهو ابن الشيطان، كان قد اختفى تماما.

- إنه الشيطان الرجيم الذي وسوس لي، يقول بنبرة لوم، والذي يصغي إلى نصائحه الغادرة هو مثل الذي يصغي إلى نصائح النساء. أقسم برأس سيدي عبد القادر الجيلالي أن ذلك لن يحدث لي أبدا.

كان النهار قد طالع عندما وصل الآغا بلقاسم إلى وهران. واستمر يبحث عن الشيطان المختبئ! وتمكن في الأخير من العثور عليه وهو يهم بالدخول إلى مقهى بوعصرية. وهو مقهى الطبقة الراقية من الأهالي2، المكان الذي تلتقي فيه البرانس الأكثر بياضا، والصدور الأكثر زركشة بالألوان.

- انتظر! يا ابن اليهودية، توقف أيها الشيطان، صاح وهو يأخذه من ذراعه ويسحبه إلى ناحية جانبية؛ ثم أفرغ في حايِكِه[3] كل محتوى جبيرته.

- أحلفْ برأسك، يقول متوسلا، وبلهجة مضحكة، ألا تخبر أحدا بأي شيء!

ولأن الشيخ مسعود كان صادقا في وعده بأنه سيحفظ السر، فقد كانت كل مقهى بوعصرية بعد ذلك بدقائق تضحك ملء الفم، وكذلك الشيخ بلقاسم، الذي كان مستاء في البداية، ثم راح يقول: إنه الشيطان الرجيم، الذي وسوس لي بمكره. لا تصغوا إليه أبدا، يا عباد اللّه!

امحمد بن رحال

---

[1] الجبيرة: كيس مطرز من الجلد، مخصص لتوضع فيه النقود والوثائق أثناء السفر، (**المؤلف**).

[2] الأهالى (م. أهلى): أو أنديجين *indigène*. " هو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على المسلمين الجزائريين إشعارا لهم بأنهم دون الفرنسيين (والأوروبيين عموما)، وهم المسلمون الجزائريون الذين فضلوا البقاء على حكم الشريعة الإسلامية بدل الدخول تحت طائلة القوانين الفرنسية... وهو المنظور إليه من الفرنسيين عادة على أنه يمثل الإنسان الأمي والمتخلف والمقهور، المستعمَر (بالفتح)" (سعد الله،2009، 10/8-9). (المترجم).

[3] الحايك: " ذو أصل عربي، معروف في كل الأقطار الإسلامية... [وهو] عبارة عن قطعة كبيرة من الكتّان، يشتمل بها الرجال والنساء على حد سواء، ويمكن أن يكون من الصوف لفصل الشتاء أو من الحرير وهو النوع المستعمل في الصيف". (صوفي فاطمة الزهراء، 2003، ص: 25). وبمرور الزمن صار خاصا بالنساء. (المترجم).

خاتمة

لقد استهدف هذا البحث ترجمة ونشر نص القصة القصيرة (انتقام الشيخ) التي كتبها امحمد بن رحال ونشرها سنة 1891. وهي - كما سبق- بالنظر إلى عصرها، ووفق كثير من المقاييس، أول نص أدبي يكتب بالفرنسية مما يوثق الانطلاقة الحقيقية لكتابات الجزائريين بهذه اللغة آنذاك، ويعطي صورة عن بدايات رائدة للكتابة الأدبية السردية التي تم تكريس بدايتها في العشرينات من القرن العشرين. فدراسة هذا المتن الرائد يندرج في سياق مواصلة البحث العلمي لتمحيص المسلمات والتحقق منها، وضرورة إعادة تقييم المقولات الرائجة والتي قد تحتاج إلى تعديل وتصحيح.

وإذا كانت شخصية سي امحمد بن رحال الفكرية والسياسية قد غطت- بنشاطه النضالي الكبير والرائد- على مشاركته الأدبية، فإنه جدير بالباحث ألا يهمل هذا الجانب، وأن يُنوه به في إطار إعادة الاعتبار له هو شخصيا، وكذلك لإنجازه الذي لم يحضَ بالاهتمام اللازم، بدءا من عدم إعادة نشر هذه القصة أو ترجمتها وإتاحتها للباحثين. وفي هذه الترجمة التي قدمت لم نجد صعوبة في نقل المقاصد والمعاني التي عبّر عنها الكاتب، لكنه كان من الصعب فعلا محاولة تكييف الترجمة مع أسلوبه الأدبي الرفيع.

ولأجل تقديم العمل الأدبي المترجم بشكل يسمح بتصور قيمته ومعالمه، عمل البحث على بناء صورة موجزة عن شخصية الكاتب، من خلال أهم محطات حياته الفكرية والنضالية، انطلاقا من أعمال الباحثين ومن شهادات معاصريه. لكنه كان من الضروري أيضا تقديم دراسة أولية للقصة نفسها. للمساهمة في بناء تصور عن آفاقها الفكرية والفنية، بدءا من مشكلة التجنيس التي ارتبطت بها، إلى فهم بنيتها السردية ودلالتها.

لكن الأهم هو محاولة المقال تقديم مدخل لمقاربة سيميائية للتعمق في دلالة هذا النص اليتيم الذي يطرح على هذا المستوى إشكالا كبيرا؛ إذ لم يكن ابن رحال يهدف إلى كتابة قصة أو (حكاية) كما تصور جون ديجو، بل إنه يقدم رسالة يتطلب إدراكها بذل جهد لاستكناه مضمرات النص، والبحث في طبقاته. ويبدو أن الكاتب كان في هذا النص كما في كتاباته الفكرية والسياسية كان منشغلا بالتغيرات التي بدأت تطرأ على المجتمع الجزائري، وبمشكلة الهوية أساسا مقابل الجهود الاستعمارية لطمس معالمها.

لا يمكن الادعاء أن قصة (انتقام الشيخ) قد قطعت شوطا كبيرا في تجربتها الفنية نحو القصة القصيرة كتلك التي كتبت في الجزائر في مرحلة لاحقة، لكنها قد تكون أفضل من بعض القصص المكتوبة في العشرينات والثلاثينات والتي اعتُبرت بداية للقصة في الجزائر. وهو ما قد يزعزع مسلماتٍ دأبنا على الاطمئنان إليها. لكن مواصلة البحث في الموضوع والتعمق في دراسة وتحليل هذه القصة قد يفتح أبوابا هامة وفضاءات منسية، ولكنها جديرة بالارتياد والاستكشاف.

قائمة المراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

1. الإبراهيمي، محمد البشير (1979)، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1.
2. أبو القاسم سعد الله (2009): **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزائر، دار البصائر، ط6.
3. أبو القاسم سعد الله (1992)، **الحركة الوطنية**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط4.
4. ابن منظور، (د.ت)، **لسان العرب**، تصنيف: يوسف خياط، بيروت، دار لسان العرب.
5. بوريس إيخنباوم (1982)، **حول نظرية النثر** في: إبراهيم الخطيب **"نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس"**، بيروت، ومؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية للناشرين، الرباط، ط1.
6. سليم البستاني(1870) ، **رمية من غير رام**، مجلة الجنان، بيروت، العدد 1، ص ص: 19-22.
7. صبرينة الواعر(2012) ، **سي امحمد بن رحال ومسألة إدماج الجزائريين**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، مجلد 27، عدد 2، ص ص: 283-318.
8. صوفي فاطمة الزهراء (2003)، «اللباس **التقليدي للعروس في الجزائر- من خلال نماذج مختارة-**»، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان.
9. عبد الغني أبو العزم (2013)، **معجم الغني**، الرباط، المغرب، مؤسسة الغني للنشر، ط1.
10. عز الدين اسماعيل (2013)، **الأدب وفنونه**، القاهرة، دار الفكر العربي، ط9.
11. غانم بودن(2017) ، **سي امحمد بن رحال ودوره في الدفاع عن قضايا الجزائريين**، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، مجلد 9، عدد 1، ص ص: 9-17.
12. فيليب هامون، (2012): **سيميولوجية الشخصيات الروائية**، ترجمة: سعيد يقطين، الجزائر، دار كرم الله للنشر والتوزيع.
13. لبيبة هاشم(1899) ، **حسنات الحب**، جريدة الضياء، القاهرة، ج 20، ص ص: 634-640.
14. محمد البشير الإبراهيمي (1979)، **آثار الإبراهيمي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

15. Abdellali Merdaci (2010), **Auteurs Algériens de langue Française de la période coloniale** dictionnaire biographique, éd, l'Harmattan, Paris.
16. Ahmed Cheniki (2019): **L'Algérie contemporaine, cultures et identités**, https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-02281109. DOI (hal-02281109).
17. AbdelKader Djeghloul (2004): **Si M'Hamed Ben Rahal Un intellectuel musulman modernisateur**, in:

18. مجلة الدراسات الإسلامية، المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، مجلد 3، عدد 5، ص ص: 89-94.

19. Charles Jonnart (1904) : **Exposé de la situation générale de Algérie**, Alger, Imprimerie du gouvernement générale.
20. Cheikh M'hammed Er-Remaoun (1903) : **Kacida sur les hôpitaux, du**, Bulletin du service de santé militaire, N° 521, P.19-20.
21. Farid Laroussi (2016): **Postcolonial Counterpoint: Orientalism, France, and the Maghreb**. Canada, University of Toronto Press.
22. Feriel Filali (2016), **Le roman Algérien : Une épopée d'une lutte contre le déracinement**, Revue de l'UEAK, Constantine, Vol 30, N° 2, PP. 463-476.
23. Gilbert Grandguillaume (1971) : **Une médina de l'Ouest algérien : Nédroma**. Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée Année, Presses universitaires de Provence, N° 10, PP. 55-80.

24. Jean Déjeux (1982) : **Situation de la littérature Maghrébine de langue Française**, Alger, OPU.
25. J. Déjeux (1984) : **Dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue française**, Paris, Khartala.
26. Jean Déjeux (1975) : **La littérature Algérienne contemporaine**. Paris, PUF, Ed 1.
27. Jean Pierre Aubrit (2006), **Le conte et la nouvelle**, Paris, Armand Colin.
28. Joseph Désparmet (1910), **L'œuvre de la France en Algérie jugée par les Indigènes**. Bulletin de la Société de Géographie d'Alger, N°57. PP. 417-436.
29. Messaouda Yahiaoui (2008), **Islam et identité nationale pendant l'entre deux guerres 1919-1936 en Algérie**,"El-nahda et réactions coloniales". El-mawaqif, Université de Mascara, Vol 2, N° 1, PP. 51-62.
30. M'hamed Ben Rahal (1891), **La vengeance du cheikh**. La revue Algérienne et Tunisienne Littéraire et Artistique. Année : 4, Vol : 8, N° : 13, Alger, 26 Septembre, PP. 428 - 433.
31. M'hamed Ben Rahal (1887), **Etude sur l'application de l'instruction publique en pays arabe.** Bulletin de la Société de Géographie d'Oran, Vol 7, N° 33, PP. 117-123.
32. M'hamed Ben Rahal (1887), **Le Soudan au 16ème siècle**. Bulletin de la Société de Géographie d'Oran, Vol 7, N° 35, PP. 331-320.
33. M'hamed Ben Rahal (1888), **Histoire de Nédroma par l'Agha si Hamza**. Bulletin de la Société de Géographie d'Oran, Vol 8, N° 38, PP. 211-217.
34. M'hamed Ben Rahal (1889), **A travers les Beni Snassen**. Bulletin de la Société de Géographie d'Oran, Vol 9, N° 40, PP. 5-50.
35. M'hamed Ben Rahal (1901), **L'avenir de l'Islam**. Questions diplomatiques et coloniales, T.8, N° 113, PP. 538-550.
36. M'hammed Er-Reamaoun (2006), **Quaçida sur les hôpitaux, du cheikh M'hammed Er-Remaoun**. Turath, Le Melhoun ; Textes et documents, Cahiers du CRASC, N° 15, PP. 61-66.

36- Paul Azan (1928), **Si M'hammed Ben RAHAL**. in L'Afrique Française, Année 38, N° 1, PP. 522-523.